١ تم ٣: ١٦

سرّ التقوى: محور كريستولوجيّ للتنظيم الكنسيّ

الأب أنطوان عوكر
أستاذ مادّة الكتاب المقدّس في الجامعة الأنطونيّة وجامعة الروح القدس

مقدّمة

إنّ التنظيم الكنسيّ هو من أبرز أهداف "الرسائل الرعائيّة". تأتي التوجيهات التنظيميّة في هذه الرسائل هرميًّا، ابتداءً من الأسقف، مرورًا بالشمامسة، وصولاً إلى سائر فئات الجماعة (الشيوخ والعجائز والشابّات والشبّان والعبيد). يظهر هذا الترتيب واضحًا في الرسالة إلى تيطس وفي الرسالة الأولى إلى تيموتاوس. يرتكز هذا التنظيم على صفات يجب أن تتحلّى بها كلّ فئة من الفئات المذكورة. بالمُقابل، يُخطئ مَن يعتقد أنّ هذه الرسائل تبني التنظيم الكنسيّ على مقوّمات بشريّة ومقدّرات إنسانيّة وأخلاقيّات نبيلة...؛ فالرسالة إلى تيطس لا تخلو من اللاهوت البحت الذي يُشكّل أساس المطلوب في التوجيهات العملانيّة (رج مثلاً ٢: ١١-١٥؛ ٣: ٤-٧)؛ كذلك الرسالة الأولى إلى تيموتاوس، فإنّها تَلحَظ "سرًّا" كريستولوجيًّا عظيمًا في قَلب الرسالة، تورده في ٣: ١٦. بعد إبراز الإطار الأدبيّ للآية ١٦ نتوقّف على بنيتها وعلى أبرز التفاسير التي أُعطيت لسرّ التقوى العظيم.

١ - إطار الآية ٣: ١٦ الأدبيّ

تُمهّد الآيتان ٣: ١٤-١٥ للآية التالية (آ ١٦) وتشكّلان معها وحدة أدبيّة مستقلّة غير مرتبطة ظاهريًّا مع إطارها المباشر. فالموضوع المُعالج قبل هذه الآيات يُطاول الليتورجيّا وتحديدًا تنظيم منهجيّة الصلاة (٢: ١-١٥)، ويتناول صفات الأسقف والشمامسة والشمّاسات والدور الواجب عليهم أنْ يقوموا به (٣: ١-١٣). أمّا النصّ الذي يلي هذه الآيات، فَيُتابع المهمّات المطلوبة من تيموتاوس. فَعمله الرعائيّ لا يقتصر على تنظيم العبادة والقيّمين على الكنيسة بل يشمل أيضًا حماية الجماعة المسيحيّة من المعلّمين الكذّابين حيث يلعب شخصُه دورًا أساسيًّا في الشهادة والتعليم (٤: ١-١٦)، ويُحقّق أيضًا تنظيم حياة أعضاء هذه الجماعة بمختلف فئاتها (٥: ١ - ٦: ٢). من هُنا تبدو هذه الآيات (٣: ١٤-١٦) كآيات انتقاليّة بين الأقسام التنظيميّة وكأساس لاهوتيّ لهذه التنظيمات. علينا إذًا أنْ ندرسها لنتحقّق من صحّة هذه الفرضيّة.

نُعطي أوّلاً ترجمة حرفيّة تنطلق من النصّ اليونانيّ، وإنْ لم تُحترم فيها قواعد اللغة العربيّة:

١٤أكتُبُ هذه إليكَ راجيًا أنْ أجيءَ
إليكَ على عجلٍ؛ ١٥وإنْ أُبطِئُ، فَلكي
تعرفَ كيفَ يجبُ في بيتِ اللهِ أنْ
تتصرَّفَ، التي هي كنيسةُ اللهِ الحيِّ،
عمودُ وقاعدةُ الحقِّ. ١٦وباتِّفاقٍ تامٍّ
عظيمٌ هو سرُّ التقوى:
الذي أُظهِرَ في جسدٍ،
بُرِّرَ في روحٍ،
رُئِيَ لملائكةٍ (لمُرسَلين)،
كُرِزَ بهِ في أُمَمٍ،
أُومِنَ بهِ في عالَمٍ،
رُفِعَ في مجدٍ.

يظهر هدف كتابة الرسالة واضحًا في الآيتَين ١٤-١٥: يرجو بولس أنْ يأتي عاجلاً إلى تيموتاوس، وبانتظار

تحقيق ذلك يكتب إلى تلميذه كي يعرف هذا الأخير كيفيّة التصرّف ومنهجيّة العمل الرعائيّ في كنيسة الله الحيّ. تُعطي هاتان الآيتان الطابع الرعائيّ لهذه الرسالة وتُمهّدان لمفهوم سرّ التقوى الذي يعرضه بولس في الآية ١٦ مُستعينًا بنشيد قديم. تجدر الإشارة إلى صعوبة تفسيريّة تحتوي عليها الآية ١٥ وهي مسألة التوصيف "عمود وقاعدة الحقّ": هل تصف هاتان الكلمتان "الكنيسة بيت الله الحيّ" أم "تيموتاوس"؟ فاللغة اليونانيّة لا تسمح ببتّ هذه المسألة[١]. مهما يكن من أمر إرجاع الكلمتَين "عمود وقاعدة"، ما يهمّنا هو أنّ الحقّ الذي يتبعهما يعود إلى سرّ التقوى المذكور في الآية التالية: فالحقّ يظهر من خلال مضمون الصيغة الإيمانيّة الواردة في الآية ١٦؛ أضف إلى ذلك أنّ مفهوم "التقوى" الذي يرد في الرسائل الرعائيّة يختلف عن المعنى المعروف لهذه الكلمة كتجلٍّ للحياة الروحيّة الورعة. فالتقوى في هذه الرسائل هي نهج الحياة المسيحيّة المُرتبط بالإيمان الحقّ[٢]. من هُنا نفهم أنّ مضمون الآية ١٦ يتخطّى الأبعاد الكريستولوجيّة البحتة ليشمل محطّاتٍ من حياة يسوع المسيح قادرة على تثبيت السلوك المسيحيّ والتنظيم الكنسيّ عامّة.

٢ – بنية الآية ١٦ الأدبيّة

يتألّف النشيد الوارد في ٣: ١٦ من ستّة أشْطُر:

١– الذي[٣] أُظهِرَ في جسدٍ،
٢– بُرِّرَ في روحٍ،
٣– رُئِيَ لملائكةٍ (لمُرسَلين)[٤]،
٤– كُرِزَ به في أُممٍ،
٥– أُومِنَ به في عالَمٍ،
٦– رُفِعَ في مجدٍ.

عُرِضَتْ عدّة بُنى أدبيّة تسعى لتنظيم هذه الأشطُر الستّة[٥]. نستعرض هنا أبرز البُنى المقترحة من دون أنْ نُثقّل النصّ بأسماء المُفسّرين الذين عرضوها وبتقويم كلٍّ من هذه البُنى[٦].

أعطت بعض البُنى تسلسلاً زمنيًّا لهذه الأشطر ساعيةً إلى نسبة كلّ شطر إلى حدث مرتبط بحياة يسوع أو الكنيسة. هُناك نموذجان للبُنى الكرونولوجيّة يُختصران على الشكل التالي:

١– ولادة يسوع أو تلميح للتجسّد
٢– العماد والتجارب (ففيهما ذكر للروح، وفيهما بُرِّرَ يسوع) أو تلميح للقيامة
٣– خدمة الملائكة بعد التجارب (مر ١: ١٣) أو تلميح للصعود
٤– البشارة الرسوليّة التي بدأت خلال حياة يسوع أو تلميح إلى رسالة الكنيسة بعد الصعود
٥– إيمان الرسل الأوّلين أو تلميح إلى نجاح رسالة الكنيسة
٦– الصعود أو تلميح لتجلّي يسوع الأخير

هُناك أيضًا نموذجان للبُنى المؤلّفة من قسمَين، يحتوي كلّ منهما على

(١) راجع مناقشة هذَين التفسيرَين بالإضافة إلى رَبط "عمود وقاعدة الحقّ" مع ما يلحق (أي الآية ١٦) في مقال:
Annie Jaubert, «L'image de la colonne (1 Timothée 3,15)», in Collectif, *Studiorum paulinorum congressus internationalis catholicus 1961*, vol. 2, Analecta Biblica 17-18, Biblical Institute Press, Rome, 1963, p. 101-108.

(٢) راجع مثلاً: Chantal Reynier et Michel Trimaille, *Les épitres de Paul III, Commentaire pastoral*, Bayard-Centurion, Paris, 1997, p. 282.

(٣) يختلف التقليد النصّيّ بشأن هذه الكلمة: هل هي الاسم الموصول المُذكّر (فيعود إلى يسوع المسيح) وتتناغم مع بدء بعض الأناشيد الواردة في العهد الجديد (راجع مثلاً فل ٢: ٦)، أم الاسم الموصول المُحايد (فيعود إلى "سرّ التقوى" الوارد ذكره في مطلع الآية ١٦)، أم اسم الجلالة (الله) الذي يلتبس مُختصره مع الاسم الموصول المُذكّر؟

(٤) تحتمل الكلمة اليونانيّة المَعنيَين: ملائكة ومُرسَلين.

(٥) نجد عرضًا للبُنى المقترحة لهذا النشيد في: Robert H. Gundry, «The Form, Meaning and Background of the Hymn Quoted in 1 Timothy 3:16», *in* W. Ward Gasque and Ralph P. Martin, eds., *Apostolic History and the Gospel. Biblical and Historical Essays Presented to F.F. Bruce*, The Paternoster Press, 1970, p. 203-222.

(٦) لمزيد من المعلومات يُمكن مراجعة المقال الوارد في الحاشية السابقة.

ثلاثة أشطر تتمحور حول موضوع كريستولوجيّ.

النموذج الأوّل:

القسم الأوّل: حياة الربّ المُتجسّد: كما رُئِيَت على الأرض (١-٢)، وفي السماء (٣)

القسم الثاني: حياة الربّ الصاعد: كما كُرِزَتْ على الأرض (٤-٥)، وكما عيشت في السماء (٦)

النموذج الثاني:

القسم الأوّل: (١-٢) حياة يسوع الأرضيّة؛ (٣) لازمة الانتصار بالصعود

القسم الثاني: (٤-٥) حياة يسوع في الكنيسة؛ (٦) لازمة المجد النهيويّ بعد المجيء الثاني

يُمكننا أيضًا أنْ نُصنّف البُنى المؤلّفة من ثلاثة أقسام متساوية في نموذجَين:

نموذج مزدوج متواز

١-٤: المسيح كما أُظهِرَ وكما أُعلِن

٢-٥: المسيح كما بُرِّرَ وكما عُرِفَ

٣-٦: المسيح كما كُرِّم وكما مُجِّدَ في العالم السماويّ

نموذج مزدوج مُتتابع

١-٢: جسد / روح: تجسّد وقيامة

٣-٤: ملائكة / أُمم: ظهور للملائكة وإعلان للبشر

٥-٦: عالم / مَجد: قَبول في العالم وفي السماء

يُمكننا أن نوسّع هذا النموذج الأخير ليشمل أيضًا الحركة المكانيّة (الأرض والسماء)، حيث يبرز التوازي والتعارض بحسب البنية المُعاكسة أ.ب./ب.أ./أ.ب.، فَيُصبح على الشكل التالي:

١- أرضيّ: جسد

٢- سماويّ: روح

٣- سماويّ: ملائكة

٤- أرضيّ: أُمم

٥- أرضيّ: عالم

٦- سماويّ: مجد

يعرض القسم الأوّل (١-٢) أساس العمل الخلاصيّ بمجمله: التجلّي الإلهيّ على الأرض والإدخال في العالم الإلهيّ. ويُظهر القسم الثاني (٣-٤) هذا العمل الخلاصيّ مُعلَنًا للملائكة والبشر. أمّا في القسم الثالث (٥-٦)، فَتبدو الكنيسة مُنشدة انتصار المسيح.

أمّا البنية التي نراها مناسبة للأشطر الستّة، فتنطلق ممّا عرضه غاندري[٧] وتوسّعه وتوضّحه. ترتكز بُنيتنا أساسًا على البنية السابقة التي توقّفت على الأبعاد المكانيّة. لكنّ البنية السابقة، كما سائر البُنى الأُخرى، لم تُركّز على الأفعال الواردة في مطلع الأشطر، بل انحصرت في الأسماء الواردة في نهاية كلّ شطر. تتوقّف إذًا بُنيتنا على الأبعاد المعنويّة التي تحتويها هذه الأفعال.

نُلاحظ أوّلاً أنّ الشطرَين ٢-٣ يتكاملان في البُعد المكانيّ (سماويّ) وفي بُعد السبب والنتيجة (بُرِّرَ في روح "لذلك" رُئِيَ لملائكة). وما قيل عن الشطرَين ٢-٣ يُقال أيضًا عن الشطرَين ٤-٥: يتكاملان في البُعد الأرضيّ، ويبدو واضحًا أنّ الشطر ٥ (الإيمان) يأتي كنتيجة للشطر ٤ (الكرازة). والفعلان الواردان في صيغة المجهول يُنسبان إلى أعمال بشريّة؛ فالمجهول فيهما ليس مجهولاً إلهيًّا. والقسمان (٢-٣ و٤-٥) يرتبطان أيضًا بنَهج السبب والنتيجة: "لأنّه" بُرِّرَ في روح ورُئِيَ لملائكة "لذلك" كُرِزَ به في أُمَمٍ وأُومِنَ به في عالم.

أمّا الشطران ١ و٦ فَيُشكّلان إحاطة كبرى تُبرز حياة يسوع العلنيّة انطلاقًا من التجسّد انتهاءً بالصعود. وفي هذَين الشطرَين يبدو واضحًا أنّ المجهول هو مجهول إلهيّ.

كلّ هذه الملاحظات تقودنا إلى استخلاص البنية التالية:

١- الذي أُظهِرَ في جسدٍ، (من الأرض)

٢- بُرِّرَ في روحٍ، (بُعد سماويّ)

٣- رُئِيَ لملائكة، (بُعد سماويّ)

٤- كُرِزَ به في أُمَمٍ، (بُعد أرضيّ)

٥- أُومِنَ به في عالمٍ، (بُعد أرضيّ)

٦- رُفِعَ في مجدٍ. (إلى السماء)

(٧) راجع Gundry, Robert H., *Op.cit*, p. 208-209.

خلاصة: ماهيّة سرّ التقوى والتنظيم الكنسيّ

كما بُنية الأشطر الستّة، كذلك معاني الأفعال الواردة فيها والأحداث المسيحانيّة التي تدلّ عليها، فَقد حظيت بفرضيّات كثيرة من قِبَل المُفسّرين. يَطول بنا الكلام إذا أردنا تثبيت الحدث المُشار إليه بالعبارة "أُظهِرَ في جسد" مثلاً: هل هي تُشير إلى التجسّد أم إلى حياة المسيح الأرضيّة عامّة أم إلى ظهورات يسوع بعد القيامة حيث ظهر بجسد وعظام (لو ٢٤: ٣٩)؟[٨] بالمُقابل يُمكننا أن نختصر لاهوت سرّ التقوى الإجماليّ دون الدخول في التفاصيل التي أشرنا إليها.

سرّ التقوى هو سرّ عمل الله في المسيح يسوع وفي العالم. يظهر هذا العمل الإلهيّ من خلال الأفعال الواردة في صيغة المجهول الإلهيّ. شكّلت حياة يسوع الأرضيّة، وبخاصّة قيامته من بين الأموات، محطّة أساسيّة لِعمل الروح كاشفًا برّ المسيح ومنهاج التبرير بالإيمان به. أسّسَ هذا السرّ لمضمون الكرازة الكَنسيّة وبالتالي لدعوة جميع الأمم إلى الوصول إلى الإيمان ومن ثمّ إلى التبرير فالخلاص.

ركّز بولس على أهمّيّة هذا السرّ من خلال التمهيد له بعبارة "بالإجماع"[٩] ومن خلال وصفه بالعظيم. لا تنحصر هذه الأهمّيّة بالمستوى العقائديّ بل تتوسّع لتشمل التنظيم الكنسيّ كما رأينا في الإطار الأدبيّ الواردة فيه صيغة هذا "السر". فهذا السرّ يُساعد المؤمن، على المستوى الشخصيّ كما على المستوى الكنسيّ، ومهما كانت "مرتبته" الجماعيّة، على عيش مُتطلّبات حالته الكنسيّة وعلى دحض المُعلّمين الكذّابين وإبراز مضمون الإيمان المستقيم.

أخيرًا، يُمكننا القول بأنّ الرسالة الأولى إلى تيموتاوس احترمت التراتبيّة البولسيّة التي تُعطي الأولويّة للإيمان ولمضمونه الصحيح. على هذا الأساس الصَّلب يُبنى التنظيم الكنسيّ. فالرسائل الرعائيّة، وإنْ وُصِفَتْ بالتنظيميّة، فهي لا تخلو من "قوانين إيمان" تُؤسِّس لكلّ التوجيهات الكنسيّة.

(٨) حظيت سائر الأفعال بتفاسير مختلفة؛ راجع مثلاً العرض الوارد في: Spicq Ceslas, *Saint Paul, Les épîtres pastorales*, t. I, Études Bibliques, J. Gabalda et Cie, Paris, 1969, p. 468-475.

(٩) ترجمة أخرى: "لا خلاف" أو "باتّفاق تام". لا ترد هذه الكلمة إلاّ هنا في كتب العهد الجديد.